

310515 - حول صحة قصة ذي النون المصري في توبة السكران.

السؤال

ما صحة قصة ذي النون المصري التي في كتاب "التوابين" لابن قدامة في توبة السكران؟ قال ابن باكويه : وحدثنا بكران بن أحمد ، قال : سمعت يوسف بن الحسين ، يقول : " كنت مع ذي النون المصري على شاطئ غدير ، فنظرت إلى عقرب أعظم ما يكون على شط الغدير واقفة ، فإذا بضفدع قد خرجت من الغدير ، فركبتها العقرب ، فجعلت الضفدع تسبح حتى عبرت ، فقال ذو النون : إن لهذه العقرب لشأنا ، فامض بنا ، فجعلنا نقفوا أثرها ، فإذا رجل نائم سكران ، وإذا حية قد جاءت ، فصعدت من ناحية سرته إلى صدره ، وهي تطلب أذنه ، فاستحكمت العقرب من الحية فضربت بها ، فانقلبت وانفسخت ، ورجعت العقرب إلى الغدير ، فجاءت الضفدع ، فركبتها فعبرت ، فحرك ذو النون الرجل النائم ، ففتح عينيه ، فقال : يا فتى ، انظر مما نجاك الله ؟ هذه العقرب جاءت ، فقتلت هذه الحية التي أردتكَ ، ثم أنشأ ذو النون يقول : يا غافلا والجليل يحرسه من كل سوء يدب في الظلم كيف تنام العيون عن ملك تأتيه منه فوائد النعم فنهض الشاب ، وقال : إلهي هذا فعلك بمن عصاك ، فكيف رفئك بمن يطيعك ؟ ثم ولى ، فقلت : إلى أين ؟ قال : إلى البادية ، والله لا عدت إلى المدن أبدا " .

الإجابة المفصلة

الحمد لله.

هذه القصة أوردها ابن قدامة رحمه الله في كتاب "التوابين" (87) ، فقال : " قال ابن باكويه : وحدثنا بكران بن أحمد ، قال سمعت يوسف بن الحسين ، يقول كنت مع ذي النون المصري على شاطئ غدير فنظرت إلى عقرب أعظم ما يكون على شط الغدير واقفة ، فإذا بضفدع قد خرجت من الغدير فركبتها العقرب ، فجعلت الضفدع تسبح حتى عبرت ، فقال ذو النون : إن لهذه العقرب لشأنا فامض بنا ، فجعلنا نقفوا أثرها ، فإذا رجل نائم سكران وإذا حية قد جاءت فصعدت من ناحية سرته إلى صدره وهي تطلب أذنه ، فاستحكمت العقرب من الحية فضربت بها فانقلبت وانفسخت ورجعت العقرب إلى الغدير ، فجاءت الضفدع فركبتها فعبرت . فحرك ذو النون الرجل النائم ففتح عينيه ، فقال : يا فتى انظر مما نجاك الله ، هذه العقرب جاءت فقتلت هذه الحية التي أردتكَ ثم أنشأ ذو النون يقول

يا غافلا، والجليل يحرسه * من كل سوء ، يدب في الظلم

كيف تنام العيون عن ملك * تأتيه منه فوائد النعم ؟!

فنهض الشاب ، وقال : إلهي هذا فعلك بمن عصاك ، فكيف رفئك بمن يطيعك ، ثم ولى فقلت إلى أين؟ قال إلى البادية، والله لا عدت إلى المدن أبدا " .

وأوردها ابن الجوزي في "عيون الحكايات" (ص102) من طريق يوسف بن الحسين.

وأخرجها من طريق آخر المقدسي في "المنتقى من مسموعات مرو" (ورقة 66) مخطوط ، فقال : "أخبرتني جدتي فاطمة قالت: أنبأ أبو مسلم الرازي، أنبأ أبو الحسين علي بن الحسين القطان قال: سمعت محمد بن علي بن هيدام يقول: سمعت أحمد بن محمد بن إبراهيم يقول: سمعت صدقة بن الفضل الواسطي يقول: قال لي بعض أصحاب ذي النون ابن إبراهيم الأحميمي قال: كنت مع ذي النون رضي الله عنه على شاطئ غدير ... ثم ساق القصة) .

فأما الإسناد الذي نقله ابن قدامة فإنه منقول من بعض كتب ابن باكويه ، فابن قدامة لم يدركه ، حيث توفي ابن باكويه سنة 428هـ ، وولد ابن قدامة سنة 541هـ .

وابن باكويه ترجم له الذهبي في "سير أعلام النبلاء" (17/544) فقال : "ابن باكويه مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الشَّيرَازِيِّ ، الإمام ، الصَّالِحُ ، المُحدِّثُ ، شَيْخُ الصُّوفِيَّةِ ؛ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ باكويه الشَّيرَازِيُّ ، وُلِدَ: سَنَةَ نَيْفٍ وَأَرْبَعِينَ وَثَلَاثَ مِائَةٍ ، وَطَلَبَ هَذَا الشَّانَ ، وَارْتَحَلَ فِيهِ .. وَقَعَ لِي جُزْءٌ مِنْ حَدِيثِهِ ، وَلَهُ تَصَانِيفٌ وَجُمُوعٌ .

قَالَ أَبُو صَالِحٍ الْمُؤَدِّنُ: نظرتُ في أجزاء أبي عبد الله بن باكويه ، فلم أجِدْ عَلَيْهَا آثار السَّمَاعِ ، وَأَحْسَنُ مَا سَمِعْتُ عَلَيْهِ الْحَكَايَاتُ ". انتهى.

وقال الصريفي في "المنتخب من كتاب السياق لتاريخ نيسابور" (ص31) : "ابن باكويه

محمد بن عبد الله بن عبيد الله بن باكويه الشيرازي الصوفي أبو عبد الله ، شيخ الصوفية في وقته ، العالم بطرقهم ، الجامع لحكاياتهم وسيرهم ، لقي المشايخ ، وأخذ منهم ، وأقام بنيسابور ، وسكن دويرة السلمي وله مجالسات حسنة مع المشايخ ، وسمع الحديث وروى ، إلا أن الثقات توقفوا في سماعاته للأحاديث ، وذكروا أن خير ما يروى عنه الحكايات ". انتهى.

وأما شيخه بكران بن أحمد ، فقد ترجم له أبو نعيم في "تاريخ قزوين" (2/357) فقال: "بكران بن أحمد الْقَزْوِينِي من شيوخ الصوفية ، سمع يوسف بن الحسين ، وروي عنه أَبُو عَبْدِ اللَّهِ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الشَّيرَازِي الصوفي ". انتهى

وأما يوسف بن الحسين ، فقد ترجم له أبو عبد الرحمن السلمي في "طبقات الصوفية" (26) فقال: "وَمِنْهُمْ يُوسُفُ بْنُ الْحُسَيْنِ أَبُو يَعْقُوبَ الرَّازِي ، شَيْخُ الرَّيِّ وَالْجِبَالِ فِي وَقْتِهِ ، كَانَ أَوْحَدَ فِي طَرِيقَتِهِ فِي إِسْقَاطِ الْجَاهِ ، وَتَرَكَ التَّصَنُّعَ وَاسْتَعْمَالَ الْإِخْلَاصِ ، صَحَبَ ذَا النُّونَ الْمَصْرِيَّ ، وَأَبَا تُرَابَ النَخْشَبِيَّ ، وَرَافَقَ أَبَا سَعِيدِ الْخَرَّازِ فِي بَعْضِ أَسْفَارِهِ وَكَانَ عَالِمًا دِينًا ". انتهى.

وقال الخطيب البغدادي في "تاريخ بغداد" (16/462) : "يوسف بن الحسين بن علي أبو يعقوب الرازي ، من مشايخ الصوفية كَانَ كَثِيرَ الْأَسْفَارِ ". انتهى.

وقال الذهبي في "العبر في خبر من عبر" (1/447) : "أبو يعقوب يوسف بن الحسين الرازي الصوفي ، أحد المشايخ الكبار ،

صحب ذا النون المصري، وروى عن الإمام أحمد ابن حنبل ودحيم وطائفة". انتهى.

وأما ذو النون المصري: فقد ترجم له الخطيب البغدادي في "تاريخ بغداد" (9/373) فقال: "كَانَ حَكِيمًا فَصِيحًا زَاهِدًا ... ونقل فيه قول الدارقطني: ذو النون بْنُ إِبرَاهِيمَ المصري ، رُوي عنه عَنْ مَالِكٍ أَحَادِيثٌ فِي أُسَانِيدِهَا نظر، وَكَانَ وَاعِظًا ... وفي رواية أخرى عنه قال: "إِذَا صَحَّ السَّنَدُ إِلَيْهِ فَأَحَادِيثُهُ مُسْتَقِيمَةٌ، وَهُوَ ثَقَّةٌ". انتهى.

فمما سبق يتبين أن سلسلة الإسناد مجموعة من أئمة التصوف، ممن عرفوا بحسن الديانة ، لكن ليسوا ممن يتحملون نقل الأحاديث .

وأما الإسناد الثاني فهو مسلسل بالمجاهيل ، ممن لم نقف لهم على ترجمة .

وهذه مجرد حكاية رآها ذو النون المصري ، وليست حديثا مسندا ، ولا أثرا موقوفا عن صحابي ، بل ولا نقلا عن تابعي ، ولا هي مما يتعلق به حكم في دين ولا شرع ، ولا أصل في اعتقاد أو خبر.

وهذه الحكايات وأمثالها ، لا يشدد في أسانيدھا ، ولا يتحرى فيها ما يتحرى في نقل الخبر عن النبي صلى الله عليه وسلم ، أو حتى عن أصحابه رضوان الله عليهم . وإذا نقلها من لم يعرف بالكذب ، ولم يكن في معناها ما يُنكر ، أو يخالف الشريعة ، أو مما يمتنع عقلا ، فلا مانع من الاستئناس بها ، وذكرها من باب الموعظة والتذكير ، حيث يتسامح في هذا الباب ما لا يتسامح في غيره .

وفي الحديث الصحيح الذي أخرجه البخاري في "صحيحه" (7378) ، ومسلم في "صحيحه" (2804) ، من حديث أبي موسى ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **لَا أَحَدٌ أَصْبَرُ عَلَى أَدَى يَسْمَعُهُ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، إِنَّهُ يُشْرِكُ بِهِ ، وَيُجْعَلُ لَهُ الْوَلَدُ ، ثُمَّ هُوَ يُعَافِيهِمْ وَيَرْزُقُهُمْ .**

إلا أن قول الشاب أنه لن يعيش في المدن ، وفرّ إلى البادية ، فهذا خلاف الهدي النبوي ، فليس من القُرب ولا من العبادات ترك الحياة في المدن ، بل هذا أقرب إلى الرهبانية المنهي عنها، وأبعد من هدي الشريعة السمحة؛ إلا أن يغلب الفساد على بلد ما ، فحينئذ تسن العزلة .

هذا ومما ينبغي التنبيه عليه ، أن كتاب التوابين لابن قدامة فيه ما لا يصح سنده ، ولذا ينبغي التحرز عند النقل منه .

وقد قال السخاوي في "الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ" (ص166) : " في كتاب التوابين لشيخ الإسلام الموفق بن قدامة : أشياء ما كنت أحب له إيرادها، خصوصاً وأسانيدھا مختلة ". انتهى.

ونختم بهذا النقل النفيس عن شيخ الإسلام ابن تيمية ، حيث سُئل عن كتاب "حلية الأولياء" لأبي نعيم ، كما في "مجموع الفتاوى" (18/71) ، فقال : "كِتَابُ الْحِلْيَةِ " مِنْ أَجْوَدِ الْكُتُبِ الْمُصَنَّفَةِ فِي أَخْبَارِ الزُّهَادِ ، وَالْمَنْقُولِ فِيهِ أَصَحُّ مِنَ الْمَنْقُولِ فِي

رِسَالَةِ الْقَشِيرِيِّ وَمُصَنَّفَاتِ أَبِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ السُّلَمِيِّ شَيْخِهِ وَمَنَاقِبِ الْأَبْرَارِ لِابْنِ خَمِيسٍ وَغَيْرِ ذَلِكَ ؛ فَإِنَّ أَبَا نُعَيْمٍ أَعْلَمُ بِالْحَدِيثِ ، وَأَكْثَرُ حَدِيثًا ، وَأَثْبَتُ رَوَايَةً وَنَقْلًا مِنْ هَؤُلَاءِ .

وَلَكِنْ كِتَابُ الزُّهْدِ لِلْإِمَامِ أَحْمَدَ وَالزُّهْدِ لِابْنِ الْمُبَارَكِ وَأَمْتَالُهُمَا : أَصَحُّ نَقْلًا مِنَ الْحِلْيَةِ .

وَهَذِهِ الْكُتُبُ وَغَيْرُهَا : لَا بُدَّ فِيهَا مِنْ أَحَادِيثَ ضَعِيفَةٍ ، وَحِكَايَاتٍ ضَعِيفَةٍ بَلْ بَاطِلَةٍ . وَفِي الْحِلْيَةِ مِنْ ذَلِكَ قَطْعٌ ، وَلَكِنَّ الَّذِي فِي غَيْرِهَا مِنْ هَذِهِ الْكُتُبِ أَكْثَرُ مِمَّا فِيهَا ؛ فَإِنَّ فِي مُصَنَّفَاتِ أَبِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ السُّلَمِيِّ ؛ وَرِسَالَةِ الْقَشِيرِيِّ ؛ وَمَنَاقِبِ الْأَبْرَارِ ؛ وَنَحْوِ ذَلِكَ مِنَ الْحِكَايَاتِ الْبَاطِلَةِ ، بَلْ وَمِنْ الْأَحَادِيثِ الْبَاطِلَةِ: مَا لَا يُوجَدُ مِثْلُهُ فِي مُصَنَّفَاتِ أَبِي نُعَيْمٍ .

وَلَكِنْ " صَفْوَةُ الصَّفْوَةِ " لِأَبِي الْفَرَجِ ابْنِ الْجَوَازِيِّ : نَقَلَهَا مِنْ جِنْسِ نَقْلِ الْحِلْيَةِ ، وَالْغَالِبُ عَلَى الْكِتَابَيْنِ الصِّحَّةُ ، وَمَعَ هَذَا فَفِيهِمَا أَحَادِيثُ وَحِكَايَاتُ بَاطِلَةٌ .

وَأَمَّا الزُّهْدُ لِلْإِمَامِ أَحْمَدَ وَنَحْوُهُ : فَلَيْسَ فِيهِ مِنَ الْأَحَادِيثِ ، وَالْحِكَايَاتِ الْمَوْضُوعَةِ: مِثْلُ مَا فِي هَذِهِ ؛ فَإِنَّهُ لَا يَذْكُرُ فِي مُصَنَّفَاتِهِ عَمَّنْ هُوَ مَعْرُوفٌ بِالْوَضْعِ ، بَلْ قَدْ يَقَعُ فِيهَا مَا هُوَ ضَعِيفٌ لِسُوءِ حِفْظِ نَاقِلِهِ . وَكَذَلِكَ الْأَحَادِيثُ الْمَرْفُوعَةُ لَيْسَ فِيهَا مَا يُعْرَفُ أَنَّهُ مَوْضُوعٌ قُصِدَ الْكُذْبُ فِيهِ ، كَمَا لَيْسَ ذَلِكَ فِي مُسْنَدِهِ ، لَكِنْ فِيهِ مَا يُعْرَفُ أَنَّهُ غَلَطٌ ، غَلَطَ فِيهِ رَوَاتُهُ . وَمِثْلُ هَذَا يُوجَدُ فِي غَالِبِ كُتُبِ الْإِسْلَامِ ، فَلَا يَسْلَمُ كِتَابٌ مِنَ الْغَلَطِ إِلَّا الْقُرْآنُ . انتهى.

والله أعلم.